المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/nj.v9i4.487

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 3-9-2024
تاريخ القبول: 6-7-2025

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

مُتصوَّر الصَّداقة في رسائل إخوان الصَّفاء: إيتيقا السِّياسة وبناء الاجتماع الإنسانيِّ

مهدي الشهبي[1]

mehdichehbi@yahoo.fr

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى مقاربة مُتصوَّر الصداقة في رسائل إخوان الصفاء باعتباره نموذجًا لإيتيقا السياسة وبناء الاجتماع الإنساني في التراث الإسلامي. ولبلوغ هذه الغاية اعتمدنا منهجًا تحليليًّا تأويليًّا ذا بعد تاريخي وقسّمنا العمل إلى تأطير تاريخي وفكري لجماعة إخوان الصّفاء ثم مُتصوّر الصداقة في مدونة الرسائل فسياسة الأصدقاء. وقد أفضى البحث إلى إدراك صوْغ إخوان الصّفاء مُتصوّرًا صميمًا ضبَط الشكل الأمثل لرابطة الصداقة ما يجعل مقالتهم فيها ومذهبهم في التآلف والمصاحبة من أبلغ ما خلّفه السجل التراثي في هذا الباب كما خلُصنا إلى أنّ المَنْزع الأخلاقي عندهم شرطٌ أساسٌ لاتّخاذ الأصدقاء مع تطويق الجماعة بشروط إيتيقيّة صارمة وبهذا وُفّق إخوان الصّفاء في المناسبة بين الممارسة والفكرة بناءً لاجتماع إنساني سرّي ينتظم في بنية هيكليّة دقيقة مدارها الالتزام بقواعد سلوكية متينة.

الكلمات المفتاحية:

التراث الإسلامي، الرّابطة الاجتماعيّة، مُتصوّر الصداقة، إخوان الصّفاء، إيتيقا السياسة.

(1) باحث، جامعة الزيتونة، تونس.

للاقتباس: الشهبي، مهدي، مُتصوَّر الصَّداقة في رسائل إخوان الصَّفاء: إيتيقا السِّياسة وبناء الاجتماع الإنسانيّ، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج9، ع4، 2025، 180-207.

© نُشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص بتنزيل البحث وقراءته والتصرّف به مجانًا، مع ضرورة نسبه إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان ما إذا أُجري عليه أي تعديل، ولا يجوز استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 2024-9-3
Accepted: 2025-7-6

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

The Notion of Friendship in Rasā'il Ikhwān al-Ṣafā': Political Ethics and the Construction of Human Assembly

Mehdi Chehbi[2]

mehdichehbi@yahoo.fr

Abstract:

This study explores the concept of friendship in Rasā'il Ikhwān al-Ṣafā' as a foundational model for ethical politics and societal organization within Islamic heritage. Using a historically grounded analytical and interpretive method, the research examines the intellectual framework of the Epistles, the meaning of friendship within them, and the political dynamics among companions. It reveals that the Epistles articulate a deep and refined vision of friendship, emphasizing harmony and ethical companionship as central to their legacy. The authors viewed ethical integrity as essential for forming friendships, embedding their group within strict moral boundaries. Ultimately, the Epistles demonstrate a successful fusion of theory and practice in constructing a covert, ethically structured human society.

Keywords:

Islamic Heritage, Social Bond, Concept of Friendship, Ikhwān al-Ṣafā, Political Ethics.

(2) Researcher, University of Ez-Zitouna, Tunisia.

Cite this article as: Chehbi, Mehdi, The Notion of Friendship in Rasā'il Ikhwān al-Ṣafā': Political Ethics and the Construction of Human Assembly, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 9, issue 4, 2025, 180-207.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

مقدمة

ما تزال المدوّنة التراثيّة الإسلامية العربية حقلًا خصبًا يجدُر بحثه لما يحويه من فكر ظلّ يحافظ في أغلبه الأعمّ على راهنيّة وجدّة رغم ما انقضى عن زمن وضْعه وبوْنُ ما بين المُصنّف والمتلقّي الآن وهنا. وليس أدلّ على هذا من النصوص التراثية الخام البكر ما اتّصل منها بالروابط الاجتماعيّة من مثل الصداقة في تعبير إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء، يدفعنا إلى ذلك الانْهجاس بالبحث في الإنسان «الجُرم الصغير» و«العالَم الكبير» لما يشهده عالمنا اليوم من سرعة متكثّفة ولّدت سيولةً في الروابط الاجتماعية وهشاشة في الصّلات الإنسانية مع وعينا بما يتخلّل البحث من مزالق منهجية ومحاذير معرفيّة ينبغي تدبيرها على الوجه الأمثل لمُجاوزة آثارها الممكنة ومفاعيلها المحتملة.

وعلى الرغم من كثرة البحوث التي تناولت فكر إخوان الصفاء من حيث انتمائهم المذهبي أو تأثّرهم بالفلسفة اليونانية فإنّ التناول المنهجي لرابطة الصداقة لديهم بوصفها شكلًا من أشكال التنظيم الاجتماعي والتربوي لا يزال محدودًا بل يكاد يغيب عن معظم الدراسات التي اكتفت بمقاربات وصفية أو تاريخية. وتأسيسًا على هذا يسعى هذا البحث إلى بذل قراءة تحليلية تأويلية لفكرة الصداقة في رسائل إخوان الصفاء بما يتيح الكشف عن بنية التصور الأخلاقي والسياسي الذي انتظم جماعتهم ويُضيء من الداخل آليات فرز الأعضاء وتدبير الصلة بين الذات والآخر.

تنطلق إشكالية البحث من سؤال مركزي مؤدّاه تصوّر إخوان الصّفاء لرابطة الصداقة والوظائف الاجتماعية والأخلاقية والسياسية التي أسندوها إليها في بناء جماعتهم. وتنبثق عن هذا السؤال تساؤلات فرعية تتعلّق بهوية الجماعة وشروط الانتماء إليها وصورة الصديق المثالي ومفاهيم التعاون والتوريث والمقابلة بين الصداقة والقرابة.

نرمي من وراء هذا البحث إلى إدراك جملة من المقاصد منها تفكيك بنية مُتصوّر الصداقة في رسائل إخوان الصّفاء واستجلاء خصائصه الأخلاقية والتنظيميّة وإظهار الأسس الفلسفية والاجتماعية التي انبنى عليها هذا المُتصوّر باعتباره أداة إصلاحية وغاية أنطولوجية، ونتغيّى مع ذلك استقصاء شروط الانتماء إلى جماعة إخوان الصفاء عبْر الصداقة معيارًا للتمييز والانتقاء صُلب الجماعة وربْط ذلك بمعنى السياسة الأخلاقية في متخيّل الاجتماع لديها.

نقتفي في ذلك كلّه أثر فكرة الصداقة كما ثبُتت في مدوّنة الرسائل مقتضياتٍ وسياسةً وتكمن أهمية هذا البحث في سعيه إلى إعادة قراءة خطاب تراثي من زاوية تدعم التكامل المعرفي بين العلوم

الإنسانية والاجتماعيّة الحديثة والمعاصرة والتراث الإسلامي في مقابل التصنيفات المذهبية أو التجريدات الفلسفية التي طغت على كثير من القراءات السابقة.

وقد اعتمدنا منهجًا تحليليًّا تأويليًّا مؤطّرًا بسياق تاريخي يُحلّل مضمون الخطاب في رسائل إخوان الصّفاء ويتتبّع المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية فيها مع التوسّل بالتأطير التاريخي والسياقي لفهم الأنساق الفكرية المؤسّسة لمُتصوّر الصداقة وبيان موقعه ضمن منظومة الروابط الاجتماعية في التراث الإسلامي، ولا يتمّ لنا بلوغ مرام البحث إلّا بعملٍ ينتظم وفق ما تقتضيه المعالجة المنهجيّة القويمة في مستويات ثلاثة تبدأ بتأطير تاريخي وفكري لجماعة إخوان الصّفاء، يليه تناوُل مُتصوّر الصداقة من حيث الفكرة والشروط صُلب الجماعة وخارجها، ثم تتبّع سياسة الأصدقاء باعتبارها نمط تدبير سياسي للرابطة الاجتماعية داخل الجماعة.

1- التأطير التاريخي ومحاولة تحديد هوية جماعة إخوان الصّفاء

ظهرت جماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء في القرن الرابع للهجرة أي في العصر العباسي الثالث، وكان أوّل عهد ظهورها بمدينة البصرة بالعراق، ولمّا كان من المحبّذ عند البحث في مدوّنة فكرية ما دينية أو فلسفية أو علمية أن يُشار إلى الحقبة التاريخية التي شهدت إنتاج هذه المدوّنة على اعتبار أنّ المعرفة هي نِتاج لحظتها التاريخية بما تضمّه من معطيات ثقافية وأوضاع سياسيّة وملامح اجتماعية لأجل الوصْل ما بين السجلّ الفكري والبيئة التي أحاطت به نعمدُ إلى إيجاز القول بخصوص الفترة التاريخية التي ظهر إبّانها إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء.

عرف القرن الرابع للهجرة تفاعلًا ثقافيًّا بالغًا وتداخلًا عرقيًّا بيّنًا ما انجرّ عنه حركيّة في الأفكار هامّة طبعت الثقافة الإسلامية العربيّة في الجوهر بما يعنيه ذلك من المضمون والمادة المعرفية وفي العرض بما يُحيل إليه ذا من المظهر أي شكل المعارف النظرية والتطبيقية وطرائق التعبير عنها.

ومن هذا يمكن القول إنّ فكر جماعة إخوان الصّفاء تموضَع صُلب إطار تاريخي عامّ جعل منه نقطة وصل أو رابطة فكرية ما بين التراث الإسلامي من جهة والثقافات الشرقية القديمة الفارسيّة والهنديّة والثقافة اليونانيّة من جهة أخرى كما سيأتي ذكره، أو بعبارة أخرى يتسنّى لنا القول إنّ مدوّنة إخوان الصّفاء استلهمت فكرتها وصاغتها تماهيًا مع اللحظة الذهنيّة والشخصيّة الحضارية التي تغشّت القرن الرابع للهجرة إسلاميًّا.

تبعًا لمُصادرة أنْ لا فكرة من دون خلفيّة بمعنى أنّ لكلّ صاحب عقيدة دينيّة أو دعوة فلسفية

حكميّة من أُسس نهل منها وانطلق من ثناياها سواء كان هذا المُنطلق سياسيًّا أو فكريًّا أو اجتماعيًّا نلاحظ أنّ جماعة إخوان الصّفاء من خلال قراءةٍ لمدوّنتهم الموسومة بالرّسائل هي جماعة تتّخذ من آراء الأقدمين الفلسفية والدينيّة وظلّت رؤاها طاغية على جغرافيا الفكر زمن القرن الرّابع للهجرة وما تلاه.

وبالعودة إلى السجلّ التراثي بالقرن الرابع للهجرة نعثر على مصدر يكاد يكون الأوحد ممّن أتى على ذكر إخوان الصّفاء وعايشهم أو خالطهم وهو أبو حيّان التوحيدي (ت. 414هـ) الذي يُخبرنا أنّ جماعة إخوان الصّفاء هي عصابة قد تآلفت بالعِشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنّهم قرّبوا به [الطريق] إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته[3]، بما يُفصح عن أنّ الغاية من وجودهم هي تخطّي عقبة الدنيا بسلام شطر دار الخلود ووسائل نيل هذا المُبتغى هي الصداقة والطُّهر والتناصح.

تتّخذ جماعة إخوان الصّفاء كما نصّت على ذلك في الرّسائل اسم «إخوان الصّفا وخلّان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد»[4] تارةً، واسم «إخوان الصّفا وخلّان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد وأرباب الحقائق وأصحاب المعاني»[5] تارةً أخرى، إلاّ أنّ التسمية الغالبة عليهم هي إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء.

أفاد التوحيدي أنّ لجماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء معرفة بأصناف العلم وأنواع الصناعة... إلخ[6]، ومن خلال المصدر ذاته نتعرّف على بعض أسماء مؤلّفي مدوّنة رسائل إخوان الصّفاء وهم: زيد بن رفاعة، وأبو سليمان محمد بن مَعْشر البيستيّ المقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزَّنْجاني، وأبو أحمد المِهْرَجاني، والعوْفيّ.

وإنْ لم يكن مطلوبًا لذاته معرفة منْ صنّف مدوّنة رسائل إخوان الصّفاء أسماءً وعددًا؛ إذ لا موجب لذلك الآن وهنا بعد قرون خلت ولا رهان علميّ في ذلك، فإنّ الاهتمام يتكثّف حول مطلب استطلاع هويتهم الفكريّة واتجاهاتهم المعرفيّة مدخلًا إلى بحث مُتصوّر الصّداقة عندهم وهي الرّابطة الاجتماعيّة التي تعني الإنسان اليوم أزْيَد من أيّ وقت مضى.

(3) التوحيدي، أبو حيّان، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، (2019م)، (ص/227).

(4) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، مراجعة خير الدين الزركلي، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، (2018م)، ج1، (ص/43).

(5) المصدر السابق، (ص/60).

(6) التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، (ص/227).

1-1 هوية جماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء

تباينت الآراء بين المُحْدَثين والقدامى من دارسي إخوان الصّفاء كما نصّ على ذلك من القدامى جمال الدين القفطي (ت. 646هـ) في كتابه الموسوم بـ«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» حين الحديث عن رسائل إخوان الصّفاء «فقوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمة من نسْل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه واختلفوا في اسم الإمام الواضع لها [...] وقال آخرون: هي تصنيف بعض متكلّمي المعتزلة في العصر الأول»[7].

ولئن اختلف أصحاب الرأي من مؤرخي إخوان الصّفاء والباحثين في فكرهم من القدامى والمُحدثين عربًا ومستشرقين في ضبط الاتجاه الفكري لهذه الجماعة فإنّه يمكن لنا أن نحصر هذه الآراء في فساطيط ثلاثة حاولت تحديد هويتها والإحاطة باتجاهها الفكري والعقدي والسياسي وهي تباعًا: فُسطاط أوّل يقول بشيعيّة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء على العموم وإسماعيليّتهم على الخاصّة وفسطاط ثان يقول باعتزالهم وفسطاط آخر ثالث يقول بشموليّتهم.

أ. شيعة إسماعيلية:

ينقل القفطي أنّه ثمّة من عدّ رسائل إخوان الصّفاء من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، واختلفوا في اسم الإمام الواضع لها[8]، ولم يذكر صاحب النصّ اسم من يقول بهذا من مُزامنيه أو ممّن سبقه، وفي الرّسائل ما يقوم مقام الدليل على هذا ومنه قولهم: «وممّا يجمعنا وإياك –أيّها الأخ البارّ الرحيم- محبّة نبيّنا عليه السلام وأهل بيت نبيّه الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيّين صلوات الله عليهم أجمعين»[9].

ودوّن أحمد أمين في «ظهر الإسلام» أنّ كلّ من يقرأ هذه النصوص [رسائل إخوان الصفاء] يفهم أنّهم من الشيعة [...] ولكن نراهم في موضع آخر يُنكرون نظريّة المهدي المنتظر مع العلم بأنّها من أُسس الشيعة فكيف يكونون شيعة وهم ينكرون ذلك؟[10]، ولم يُوفّق أمين في هذا حينما غفل عن المميزة بين كلّ فرق الشيعة بخصوص الاعتقاد في المهديّ بأن ظنّ أنّ كلّ الشيعة يعتقدون هذا والحال

(7) القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، (2005م)، (ص/67).
(8) المرجع السابق، (ص/67).
(9) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج4، (ص/254).
(10) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، (2013م)، (ص/371).

أنّ بينهم اختلافًا عظيمًا كما عبّر عنه الشهرستاني: «ومن العجب أنّ القائلين بإمامة المنتظر مع هذا الاختلاف العظيم»[11].

في الإطار ذاته رأى المستشرق هنري كوربان في كتابه «تاريخ الفلسفة الإسلامية» أنّ جماعة إخوان الصّفاء تنتسب إلى الإسماعيلية لم يكونوا «جماعة ألّف بين قلوبهم المذهب الشيعي وحسب، بل كانوا جماعة فكرية ذات نزعة إسماعيلية خاصة بالرّغم من أنّ كتاباتهم الحذرة لا تكشف عن الأمر إلّا لأولي العلم والإدراك»[12].

ومن الباحثين العرب المعاصرين نجد من يجادل أنّ الرسائل ليست من تأليف شخص واحد بل من تأليف جماعة متعددة تتباين معارفهم وأساليبهم وهذا واضح جدًّا في رسائلهم، وربّما كان منهم بعض أئمة الإسماعيلية المستورين، أو أنّ هؤلاء الأئمة قد أوعزوا لدُعاتهم بكتابة هذه الرسائل لتكون لسان دعاية لمذهبهم[13]، غير أنّ دعاة الإسماعيلية يزعمون أنّ مؤلّف رسائل إخوان الصّفاء هو أحد أئمّتهم المستورين الذي يُدعى بأحمد بن عبد الله بن محمد[14]، كما ينقل محمد أحمد الخطيب.

في توافقٍ مع الرأي ذاته يذهب صادق قاسم إلى أنّ جماعة إخوان الصّفاء اتخذت شكل انعكاس مباشر من حيث وضعها التنظيمي لما اكتسبته حركة الإسماعيلية من تجربة تنظيمية ناجحة؛ ذلك لأنّ هذه التجربة قد وضعت أمام الحركات ذات الاتجاهات الثورية في المجال الفكري والأيديولوجي نموذجًا تاريخيًّا للممارسة والتطبيق العملي كان من قوة التأثير والجذب بحيث لم تقتصر انعكاساته فيها على الجانب التنظيمي، بل شملت المبادئ نفسها كذلك[15].

وببعض التّنسيب استنتجَ قاسم أنَّ الوجه الإسماعيلي الذي ظهر على إخوان الصّفاء لا يعطي العلاقة بينهم وبين الإسماعيلية أكثر من هذه الصفة الانعكاسية الموضوعية، ويعتقد أنّه كان لإخوان الصّفاء وجود مستقل عن التنظيم الإسماعيلي رغم ما نراه من نقاط الالتقاء الكثيرة بينهم، ولكن

(11) الشهرستاني، أبو الفتح، الملل والنّحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، (1968م)، (ص/172).

(12) كوربان، هنري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروّة وحسن قبيسي، بيروت، منشورات عويدات، ط2، (1998م)، (ص/210).

(13) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي: عقائدها وحكم الإسلام فيها، عمّان، مكتبة الأقصى، ط2، (1986م)، (ص/169).

(14) المرجع السابق، (ص/170) وما يليها.

(15) قاسم، صادق، حول ظاهرة إخوان الصفا: الفكر والعصر والمجتمع، مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي: مصادر وتراجم، جامعة وهران، الجزائر، مج6، (2007م)، (ص/214).

وجودها المستقل لا ينفي أن يكون لها نوع من الارتباط المبدئي أو المذهبي بأصول إسماعيلية[16].

من الباحثين المعاصرين القائلين بإسماعيلية إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء نجدُ أيضًا الباحث ثابت عيد الذي استنتج من وراء عرضٍ لآراء النقّاد ووجهات نظر المؤرخين أنّ جماعة إخوان الصّفاء كانت إسماعيلية الأصل والميول، وأنّها تركت أثرًا بعيد المدى على كلّ من جاء بعدها من مؤلفين وفلاسفة[17].

ويبدو ختامًا أنّ ما دوّنه إخوان الصّفاء في جملة رسائلهم لا يعدو أن يكون محض برنامج نظري مجرّد أمّا العمل فلم يُجاوز الاعتكاف للتأليف وبذل الوسع في التفكير ما استبدّ بهم واستغرق كلّ جهدهم ولم يُتح لهم الانصراف إلى تنفيذه كما لفَت إلى ذلك صادق قاسم.

ب. معتزلة:

نُطالع في مصنَّف «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» أنّه ثمّة من النّقّاد القدامى من اعتبر جماعة إخوان الصّفاء جامعة عاملة في إطار التيّار الاعتزالي الواسع، حيث ذهب إلى أنَّ «إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى [...] ولمّا كتم مصنّفوها أسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولًا بطريق الحدس والتخمين [...] هي تصنيف بعض متكلّمي المعتزلة في العصر الأول»[18] إلّا أنّه أطلق قوله دون تحديد واضح لأسماء هؤلاء النّقّاد وفي أيّ من مصنّفاتهم أخذوا بهذا الرأي واحتجّوا له.

وقد نسب جرجي زيدان وهو من النقّاد المحدثين جماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء إلى الفلسفة الإسلامية عامة دون تحديد؛ إذ يقول: «وهي [رسائل إخوان الصّفاء] تمثّل الفلسفة الإسلامية على ما كانت عليه في إبّان نضجها»[19]، وذكر أنّ إخوان الصّفاء كانوا يجتمعون سرًّا ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام[20]، ثم أشار إلى أنّ «المعتزلة ومن جرى مجراهم كانوا يتناقلون هذه الرّسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرًّا إلى بلاد الإسلام»[21] ونفهمُ من تخصيص المعتزلة دون غيرهم بخبر تناقل مدوّنة الرّسائل وتدارسها بانتساب إخوان الصّفاء وخلّان

(16) المرجع السابق، (ص/215).
(17) عيد، ثابت، الصداقة عند إخوان الصفا، مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، ج114، (2008م)، (ص/21).
(18) القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، (ص/67).
(19) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، (2013م)، (ص/778).
(20) المرجع السابق، (ص/778).
(21) المرجع السابق، (ص/778).

الوفاء إلى الاعتزال في المُنتهى أو قربهم منه في الأدنى على رأي زيدان.

أرجع يوحنا قمير رأي زيدان إلى أنّ المعتزلة كانوا يحاولون التوفيق بين الدين والفلسفة واستخدام الفلسفة في الدفاع عن الدين وهو ما دحضه بالقول «إنّ تحكيم العقل في شؤون الدين ما كان مقصورًا على المعتزلة بل كلّ من عُني بالفلسفة وتصدّى لشؤون الدين حكّم العقل ومزج الفلسفة بالدين»[22] بما ينفي الزعم بانتساب إخوان الصّفاء إلى الاعتزال أو يُنسّبه.

ج- شموليّون أو فوق الانتماء:

بيّنا فيما سبق عن بعض الآراء التي تُرجع جماعة إخوان الصّفاء إلى التشيّع الإسماعيلي على وجه الخصوص أو تُموْضعها ضمن الاعتزال وثمّة خطّ ثالث ينحو منحًى مختلفًا بخصوص تصنيف إخوان الصّفاء وضبط هويتهم الفكريّة واتّجاههم السياسي وهو المنحى القائل بشمولية إخوان الصّفاء وتعاليهم عن الانتماء إلى عقيدة أو مذهب.

نجد في هذا الفُسطاط من القدامى أبو حيّان التوحيدي الذي أجاب لمّا سُئل عن مذهب زيد بن رفاعة أحد كبار هذه الجماعة، قال «لا يُنسب إلى شيء»[23] على ما جاء في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» وهو ما نجد له أصلًا في «الإمتاع والمؤانسة» نصّه «لا يُنسب إلى شيء ولا يُعرف برهْط لجيشانه بكلّ شيء وغليانه في كلّ باب ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيانه وسطوته بلسانه»[24]، ولعل القول بهذا يتّفق وما جاء في رسائل إخوان الصفاء حيث يقولون «ينبغي لإخواننا أيّدهم الله تعالى ألّا يُعادوا علمًا من العلوم أو يهجروا كتابًا من الكتب ولا يتعصّبوا على مذهب من المذاهب لأنّ رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها»[25] بما يشي بتبنّي جماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء المذهب الشامل للفرق والديانات.

وممّن قال بذلك من النّقاد المعاصرين أحمد أمين الذي استخلص أنّ إخوان الصّفاء جماعة متخيّرون يتخيّرون من كلّ دين ومذهب ما يناسب عقليتهم لا يتورّعون عن اقتباس من النصرانية واليهودية ووثنيّي اليونان والفرس والهند وما يرون أنّه معقول[26]، ولم ينتسبوا إلى فرقة عقدية مخصوصة أو مذهب معيّن بذاته، ولعلّنا نجد لهذا الرأي بعض التأييد في ما بثّه إخوان الصّفاء في متن

(22) قمير، يوحنا، إخوان الصفا، بيروت، دار المشرق، ط3، (1968م)، (ص ص/18-19).
(23) القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، (ص/68).
(24) التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، (ص/227).
(25) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج4، (ص/137).
(26) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (ص/372).

الرسائل من مثل قولهم «ينبغي لإخواننا أيّدهم الله تعالى ألّا يُعادوا علمًا من العلوم أو يهجروا كتابًا من الكتب ولا يتعصّبوا على مذهب من المذاهب؛ لأنّ رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها»[27].

وإلى ما سبق من رأي ينتصر يوحنّا قمير أيضًا إذ استنتج في بحث له أنّ مذهب إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء كان مذهبًا اختياريًّا جامعًا لكلّ ما ظنّوه حقًّا فيما عرفوا من شرائع عصرهم ومذاهبها ومن حكماء اليونان وعلمائها[28].

في تشاكلٍ مع ذات الرّأي ترى فتيحة قوميد ومازن صباح الأعرجي في دراسة لهما بعنوان «إخوان الصفا وخلان الوفا: دراسة في اتجاههم الفكري» أنّ جماعة إخوان الصّفاء لم تعتنق أي مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية ولم تشارك في أيّ دعوة سياسية سرّية كدعوات فرق المعارضة بل أسّست دعوة فكرية تعليمية ذات رسالة تنويرية نشرها جهاز تنظيمي مُحكم في معظم أقاليم العالم الإسلامي[29]، ولئن بدا المنزع التنويري في مدونة الرسائل جليًّا مع حضور للبعد اللاعقلاني في بعض المواضع منها؛ فإنّه لا يمكن أن نوافق صاحبَيْ النصّ في نزع مَعلم السّرية عن إخوان الصفاء؛ إذ ليس أدلّ على سرّية الجماعة من جهلنا مُصنِّفيها إلى حدّ اللحظة التاريخية الراهنة وما يبدو من توفّرها على بنية هيكيلة هرمية شديدة الإيغال في التخفّي والمراوغة بما يرجّح فرضية كونها جماعة سرّية لم تعتمد الإعلان والإظهار بقدر ما توسّلت في نشاطها بالإلغاز والإبهام.

ومن جهتنا عند البحث في مدوّنة الرّسائل يظهر لنا وجاهة الرأي القائل بشموليّة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء؛ إذ نجد مثلًا أنّهم ينقلون عن عمر بن الخطّاب ويترضّون عنه «يُروى في الخبر أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ كان...»[30]، ويمتدحون صنيع الخليفة عثمان عند الرضا بقضاء الله في واقعة مقتله «وانقاد للمقادير طيّبةً بها نفسه»[31]، ويقرنُون بعثمان الحسين في سياق تقريظ الرضا بالقدر يوم كربلاء[32] مع الأخذ عن عائشة والترضّي عنها «يروى عن عائشة ﷺ»[33]، مما يرجّح تعاليهم عن

(27) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج4، (ص/137).
(28) قمير، يوحنا، إخوان الصفا، (ص/22).
(29) قوميد، فتيحة والأعرجي، مازن صباح، إخوان الصفا وخلان الوفا: دراسة في اتجاههم الفكري، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، مج14، ع02، (2022م)، (ص/589).
(30) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج1، (ص/281).
(31) المصدر السابق، ج4، (ص/163).
(32) المصدر السابق، (ص/163).
(33) المصدر السابق، ج1، (ص/289).

التمذهب والاصطفاف العقدي أوّلًا، ولهذا الرّأي ما يدعمه ويُثبته من مدونتهم أو ضمّهم لمُنتسبين متغايرين في الخلفيات المذهبية والعقديّة من متشيّعة ومتسنّنة ومتصوّفة وغير ذلك من الفرق والمذاهب ثانيًا وعلى هذا أيضًا ما يقف شاهدًا.

2-1 بنية جماعة إخوان الصّفاء: التنظيم والهيكل

تقوم هيكلة إخوان الصّفاء على بنية هرميّة تضمّ أربع مراتب يتدرّج خلالها الصّاحب من مرتبة إلى مرتبة أخرى تليها، فأُولى المراتب هي مرتبة الإخوان الأبرار والرّحماء وهي مرتبة «أرباب ذوي الصّنائع» في مدينة إخوان الصّفاء، نصّ على ذلك الإخوان في رسائلهم بالقول «أوّل المراتب صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصوّر، وهي مرتبة أرباب ذوي الصنائع في مدينتنا [...] وهي القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمس عشرة سنة من مولد الجسد [...] وهم الذين نُسمّيهم في مخاطبتنا ورسائلنا إخواننا الأبرار والرحماء»[34].

فمرتبة الإخوان الأخيار والفضلاء وهي مُخصّصة لمن أسموهم بـ«الرؤساء ذوي السياسات»، وقد لخّص إخوان الصّفاء هذه السياسات في «مراعاة الإخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة والتحنّن على الإخوان»[35]، والرتبة الثالثة فوق هذه هي مرتبة «الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي» ممّن اصطلحوا عليهم بـ«الإخوان الفضلاء الكرام» ويتولّون مهام «النصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه»[36]، وتلك أمارة على المنزع السّلمي في فكر إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء.

أمّا المرتبة الرابعة فوق هذه فهي مرتبة لم يَرِدْ بالرسائل اسمًا لمن هم بها، ولذلك فإنّنا نصطلح عليهم بالإخوان المُتسامين المفارقين؛ نظرًا إلى كوْن أنفس من بلَغها «مُفارقةٌ للهيولى»، و«بها تصعد قوة المعراج إلى ملكوت السماء» و«تُشاهد الحقّ عيانًا» كما ورد في الرسائل جزأها الرابع، وهي التي يدعو إليها إخوان الصّفاء أتباعهم كلّهم في أيّ مرتبة كانوا ولتقريب البنية من الأذهان نضع الشكل المُرفق.

(34) المصدر السابق، (ج4، ص-ص/148-149).
(35) المصدر السابق، (ص/149).
(36) المصدر السابق، (ص/149).

الشكل رقم 01: هيكل إخوان الصّفاء التنظيمي

المصدر: من إعداد الباحث

ونعي من ذلك أنّ بنية إخوان الصّفاء الهيكليّة وإن بدت هرميّة فإنّها مع ذلك مرنة تسمح بالمُجاوزة وإمكان الترقّي من مرتبة إلى التي تليها أو إلى ما بعدها دون المرور بها.

2. مُتصوّر الصداقة في فكر إخوان الصفاء من التمثّل النظري إلى التنظيم العملي

تتألّف رسائل إخوان الصّفاء في طبعة مؤسسة هنداوي لسنة 2018 بمراجعة خير الدين الزركلي من اثنتين وخمسين رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية، وهي مقسومة على أربعة أقسام فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية[37]؛ فالرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة، والرسائل الجسمانية الطبيعية سبع عشرة رسالة، والرسائل النفسانية العقلية عشر رسائل، والرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية إحدى عشرة رسالة.

أمّا الهدف أو الغاية من تأليف الرسائل حسب أصحابها فهو «تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق

(37) يُنظَر فهرست الرسائل وتقسيمها من رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج1، (ص/43) وما يليها.

للبلوغ إلى السعادة الكبرى والجلالة العظمى والبقاء الدائم والكمال الأخير»[38]، بما يُشرّع تصنيف الرسائل ما عُني منها بالصداقة على الأقلّ ضمن الموروث الأخلاقي في باب التزكية والتطهير الروحي والنفسي أو آداب السلوك، وهي تعاليم تنهل من النصوص الإسلامية كما تمتح من الوافد القيمي الفارسي والهندي الذي استدْمَجتْه في الثقافة الإسلامية العربية على عهد حكم بني أميّة أعمال جملةٍ من أهل القلم أمثال عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع وغيرهما.

عبّر إخوان الصّفاء عن رابطة الصداقة في الرسالة الخامسة والأربعين، التي اتّخذت عنوان «في كيفية معاشرة إخوان الصفا وتعاون بعضهم مع بعض وصدق الشفقة والمودّة في الدين والدنيا جميعًا»، وقد اعتمد إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء في تصنيف الرسائل أسلوبًا سلسًا وتوخّوا السّفور والجلاء مع الابتعاد عن الاحتجاب والإضمار، وترك السّجع والتكلّف في بيان يتوسّل بالبساطة لأجل إيصال ما يبغونه من معنى إلى المتلقّي، هذا عمومًا مع اعتماد الغموض والإغراق في التخفّي والمراوغة أحيانًا، وقد أرجع زكي مبارك في كتابه «النثر الفنّي في القرن الرابع» سبب اختيارهم هذه اللغة الواضحة السهلة إلى أنّ «كتّابها أرادوا أن يُفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية وذلك لا يتمّ في مثل لغة الصابي وابن العميد، فلم يكن لهم بدّ من أن يتخيّروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامّية في بعض الأحيان»[39].

وخاطب إخوان الصّفاء أعضاء جماعتهم القريبين منهم، ومن انتشروا في الأمصار، وأنحاء الجغرافيا الإسلاميّة بطريقة مهذّبة لطيفة دلّ على ذلك الإكثار من عبارات جمّة تنمّ عن رفق وطيب معشر ولينٍ من مثل: «يا أيها الأخ» أو «أيها الأخ الفاضل» مع الدعاء بالخير والفلاح في كثير من الصّيغ مثل «أيّدك الله»، و«أسعدك الله»، و«وفّقك الله للرّشاد وهداك للسّداد»، و«أعاذك الله من عذاب النار وبلّغك وإيّانا وجميع إخواننا دار القرار مع الأبرار»... إلخ.

1-2 صورة الإنسان الكامل أو الصّديق المثال

زخرت مدوّنة رسائل إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء بجملة من الأخلاق أو القيم التي حاولنا جمع شتاتها لأجل رسم فسيفساء صورة ما يمكن أن نصطلح عليه بـ«الإنسان الكامل» أو «الصّديق المثال» وهي خصال أو شمائل ستنعكس فيما بعد على ما ينبغي أن يكونه الصديق عندهم، وهي خصالٌ اختصرناها في خمس:

(38) المصدر السابق، (ص/60).

(39) مبارك، زكي، النثر الفنّي في القرن الرابع، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، (2013م)، (ص-ص/496-497).

أ. الاعتماد التامّ على الله:

يذكر إخوان الصّفاء في رسائلهم أنّ من خصال الإنسان الكامل في تصوّرهم «التوكّل على الله والثقة به والطمأنينة إليه، والإخلاص له في العمل، والدعاء والصدق بالقول والتصديق في الضمير والنصح للإخوان والوفاء بالعهد والحزم والعزم في عمل الخير والإحسان[40]، وفي هذا توجيهٌ إلى الثّقة المطلقة في الله سواء في الشدّة والرخاء والرّضا بما تجري به مقاديره مع القصد الصّافي والنيّة النقيّة في العمل الصالح وبذل النصيحة والإرشاد الصادق للإخوان مع الثبات على العمل الصّالح.

ب. الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة:

يبرز إخوان الصّفاء أهمية الزهد في الدنيا قيمةً مُثلى ينبغي أن تكون عليها صورة الصّديق المثال، وذلك في مثل قولهم: «ليس بعد العلم والإيمان خصلة للمؤمنين ولا خُلُق من أخلاق الكرام أشرف ولا أجلّ ولا أفضل من الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة؛ وذلك أنَّ الزهد في الدنيا إنّما هو ترك فضول متاع الحياة الدنيا، وترك طلب شهواتها والرضا بالقليل والقناعة باليسير من الذي لا بدّ منه»[41]، وفيه تحديد الزهد على أنّه تجنّب الانخداع بمتاع الحياة الدنيا وترك الانغماس في شهواتها وملذّاتها والانشغال في مقابل ذلك على حياة الآخرة الأبدية وتفضيلها على الدنيا ومتاعها الزّائل.

ج- العفّة:

يشدّد إخوان الصّفاء على أنّه «من خصال الزهّاد وشعارهم العفّة والتصوّن فهذه خصلة يتبعها أخلاق جميلة وخصال محمودة وفضائل كثيرة؛ فمنها الكفّ والورع والحفظ والوقار والتّقى والأمانة والمروءة والكرم»[42]، في استعراضٍ لقيمة العفّة وأثرها في جملة سلوكات الإنسان وأخلاقه من تجنّب ما تطلبه الغرائز الشهوانية والتحكّم في النفس، وضبط حاجاتها، وهو ما ينعكس على عمل الإنسان في الدنيا وحسن سلوك طريق الآخرة.

د- السّخاء والكرم والرّأفة والرحمة:

وجملة قيم أخرى جعلها إخوان الصّفاء صورة مثالية لإنسان كامل إذ من خصال الزهّاد عندهم

(40) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج1، (ص/290).
(41) المصدر السابق، (ص/288).
(42) المصدر السابق، (ص/290).

أيضًا «السّخاء والكرم والجود والبذل والمواساة والإحسان والإيثار والإفضال والرأفة والرحمة»[43] ومن ذلك بذْل الصديق ما يملك لخدمة الآخرين دون انتظار الجزاء أو الشّكور يغشى ذلك بذل المال والعلم والسّلوك الحسن اللطيف المتحنّن، والمشاركة في السرّاء والضرّاء وتقديم مصلحة الآخر أو الجماعة على الحاجة الشّخصيّة.

هـ - السموّ الروحي والأخلاقي:

يعني ذلك تقريظ جملة من الأخلاق لتعزيز قيم السلام الداخلي والتعايش الإيجابي مع الآخرين ضمن إيتيقا التسامح والاحترام المتبادل؛ إذ من خصال الصّديق المثال في رؤية إخوان الصّفاء «الحِلم والأناة والتثبّت والرزانة والتؤدة والرفق والمداراة والسكينة والوقار والحياء والصفح والعفو [...] والرضا والقناعة والتجمّل والكفاف واليأس من الطمع والراحة من العناء والتسليم للقضاء والصبر في الشدائد»[44]، ومن هذا الصبر والتحمّل مع التأنّي وترك العجلة والثبات على الاستقامة في العمل واللطف بالمخلوقات أناسيّ وحيوانات مع العيش في كنف الكرامة والعفو عند المقدرة والرّضا بالقدر والقناعة.

هذا إلى جانب خِصال أخلاقية أخرى كثيرة يحظى بها الزهّاد ما جعل منهم قدوةً أو نموذجًا يدعو إخوان الصّفاء إلى احتذائه، ليس لمجرد المحاكاة الأخلاقية والتّشاكل القيمي، وإنّما لتبنّي سلوكهم ولتجسيد تلك القيم الأخلاقية في الحياة العمليّة، وهم في ذلك يقتربون من التصوف في بعض أنحائه مثل الزهد والتوكّل والصبر وإعلاء قيم الروح فوق حاجات الجسد وشهواته.

2-2 شروط الانتماء

يرى إخوان الصّفاء بمثنويّة الإنسان؛ إذ هو في نظرهم «جسد جسماني» و«نفس روحانية» وهما «جوهران متباينان في الصفات متضادّان في الأحوال ومشتركان في الأفعال العارضة والصفات الزائلة»، ومن أجل الجسد يتمنّى الإنسان الخُلود في الدنيا ومن أجل روحه يسعى إلى الدار الآخرة وبذا كانت سلوكاته وأخلاقه عامة تتقلّب بين هذين القطبين ف«هو متردّدٌ بين الصداقة والعداوة»[45] على حدّ تعبيرهم.

وبهذا التقلّب بين قطبي الجسد والروح تختلف الطباع وتتباين الأخلاق؛ إذ «إنّ الناس مطبوعون على

(43) المصدر السابق، (ص/290).
(44) المصدر السابق، (ص/290).
(45) المصدر السابق، (ص/218).

أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم وبحسب اختلاف أشكال الفلك في أصل مواليدهم»[46]؛ فتجد من يتحلّى بخلق واحد أو جملة من الأخلاق محمودة أو مذمومة، ولهذا الاختلاف أثرٌ في الرحمة المُودعة بالإنسان؛ فثمّة «من الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه أنّه حلال له سفك دم كل مخالف له في مذهبه مثل اليهود والخوارج وكلّ من يكفر بالرب»[47]، وبالضدّ من ذلك ثمّة «من الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم ويتحنّن على كلّ ذي روح من الحيوان ويريد الصلاح للكلّ وهذا مذهب الأبرار والزهّاد والصالحين من المؤمنين **وهكذا مذاهب إخو اننا الكرام**[48] بما يُبرز سلمية الجماعة ونزوعها إلى التغيير الهادئ غير العنيف.

يبدو الغرض من منظومة الأخلاق في مدوّنة رسائل إخوان الصّفاء الدنيا والأخرى مجتمعتان؛ إذ في التضامن أو التعاضد بين أعضاء الجماعة حُسن تدبير الشأن الدنيوي على طريق الفوز بالآخرة، ومن ذلك التعاون على الخير والتناصح وحبّ الخير للغير أو بعبارة مصنِّفي الرسائل «ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة في أمر من أمور الدين والدنيا أشدّ نصيحة بعضهم لبعض، ولا أحسن من معاملة إخوان الصفاء؛ وذلك أنّ كل واحد منهم يرى ويعتقد أنّه لا يتمّ له ما يريده من إعلاء الدين إلّا بمعاونة أخيه، وكلّ واحد منهم يريد ويحبّ لأخيه ما يحبّ ويريد لنفسه وكذلك يكره له ما يكره لنفسه»[49].

كما يجعل إخوان الصّفاء من التطابق في الاعتقاد والرأي والمعاونة المتبادلة على شؤون الدنيا وواجبات الآخرة سبيلًا إلى إقامة بناء سياسي فيما يبدو من ظاهر قولهم «ينبغي لنا [...] أنْ نتعاون ونجمع قوّة أجسادنا ونجعلها قوّة واحدة ونرتّب تدبير نفوسنا تدبيرًا واحدًا ونبني مدينة فاضلة روحانية»[50]، ما يوحي بأن الأخلاق التي يدعون إليها ويعتمدونها في تنظيرهم هي أخلاق عملية أو تطبيقية قامت أوّل الأمر على أسس اعتقاديّة نظرية تمثّلوها وحرصوا فيما بعدُ على تحقّقها عيانًا.

من خلال النظر في مدونة رسائل إخوان الصّفاء نتبيّن أنّ الانتساب إلى الجماعة ونيل عضويّتها لم يكن بالأمر الهيّن المتاح للجميع دون شروط مسبقة، لا يُقبل العضو ما لم يتحقّق بها ويتّصف بما ينبغي من الصفات الخلقية والسلوكيّة الظّاهرة والباطنة وهم في هذا يُوجّهون إلى الاشتغال على الشباب وترك من هرِم، «ينبغي لك أيّها الأخ ألّا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاقًا وحشة، فإنّهم يتعبونك ثم لا ينصلحون وإن صلحوا قليلًا فلا يُفلحون،

(46) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، ج4، (ص/139).
(47) المصدر السابق، (ص/139).
(48) المصدر السابق، (ص/139) والتّشديد من عندنا.
(49) المصدر السابق، (ص/200).
(50) المصدر السابق، (ص/236).

ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور الراغبين في الآداب المبتدئين بالنظر في العلوم المريدين طريق الحقّ والدار الآخرة والمؤمنين بيوم الحساب المستعملين شرائع الأنبياء عليهم السلام عن أسرار كتبهم التاركين الهوى والجدل غير متعصّبين على المذاهب»[51].

وانطلاقًا ممّا سبق وبناءً عليه استخرجنا جملة من الشروط أو الصفات المُستوْجبة على من ينبغي الانتماء إلى جماعة إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء وهي قبليّة أي قبل الانتماء وبعديّة.

2-2-1 الصداقة حول الجماعة أو شروط ما قبل الانتماء

وهي ستّة شروط نُوردها ها هنا مع تحليلها:

أ. نفي استئهال الكلّ أن يكون صديقًا:

نبّه إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء أتباعهم إلى أنّه ليس كلّ الناس يصلحون لأن يكونوا أصدقاء؛ وذلك في مواضع عدّة من الرسائل من مثل قولهم «وينبغي لإخواننا –أيّدهم الله- حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتّخذ صديقًا مجدّدًا أو أخًا مستأنفًا أن يعتبر أحواله ويتعرّف أخباره ويجرّب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودّة وحقيقة الأخوّة أم لا؟ لأنّ في الناس أقوامًا طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة، فمنهم خيّر وشرير، وكفور وشكور، وذو أمانة وغدّار، وحليم وسفيه، وسخيّ وبخيل، [...] وعدو وصديق»[52]، وتبعًا لذلك يستحثّ إخوان الصّفاء من يطلب الانتساب إليهم على المايزة بين جملة من الطّباع كالشجاعة والجبن، والخير والشر، والسخاء والبخل وغيرها من الطّباع المسترذلة ليتسنّى عقب هذا التمحيص، وذلك التمييز اتخاذه صديقًا.

ب. الحذر في اتخاذ الصديق:

يوجّه إخوان الصّفاء إلى أهمية اختيار الأصدقاء أو الإخوة بحرص شديد مع تشبيه فعل الاختيار هذا بالتقييم الذي تحظى به المادّيات فيقولون: «ينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقًا أو أخًا أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرى المماليك والأمتعة التي يشترونها واعلم أنّ الخطْب في اتّخاذ الإخوان أجلّ وأعظم خطرًا من هذه كلها»[53]،

(51) المصدر السابق، (ص/145).
(52) المصدر السابق، (ص-ص/138-139).
(53) المصدر السابق، (ص/139).

ممّا يعني أنّه يجب تفحص الأصدقاء أو الإخوة بمثل دقّة فحص المقتنيات الثّمينة ومقارنة عمليّة الزواج بتخيّر الصداقات بل يذهب إخوان الصّفاء إلى اعتبار انتقاء الأصدقاء أهمّ من الزواج وغيره من المعاملات.

ويحثّ إخوان الصّفاء في موضعٍ آخر من مدوّنتهم على التأنّي في اختيار الإخوان بالدعوة إلى ضرورة فحص الشخص بعناية قبل التقرّب إليه أو ربط الصّلة به «اعلم يا أخي أنّ من الناس مَنْ لا يصلح للصداقة والأخوّة والمقاربة أصلًا البتّة، فانظر من تصحب وتُعاشر، ولا تغترّ بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر في مرارة عاقبتها؛ فإذا أردّت اتّخاذ أخ أو صديق فاعتبر أوّلًا أحواله واختبر أخلاقه، وسلْه عن مذهبه واعتقاده، وانظر في عاداته وسجيّته وشمائله وحركاته؛ فإنّه لا يخفى على المتفرّس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها[54]، ومنه أنّه ثمّة من ينبغي الابتعاد عنه وتجنّب صداقته بسببٍ من طبائعه أو سلوكاته لذا يجب فحص دواخله ومعرفة ما احتجب من أخلاقه ومعتقده.

ج- مراعاة صفات خُلقية مخصوصة:

يلفت إخوان الصّفاء إلى أنه لا يصلح للصداقة وصفوة الأخوّة من كان ذا أخلاق سلبيّة وصفات سيئة كأن يكون «مُعجبًا صلفًا، أو نكدًا لجوجًا، أو فظًّا غليظًا، أو مُماحِكًا ممارِيًا، أو حسودًا حقودًا، أو منافقًا مُرائيًا، أو بخيلًا شحيحًا، أو جبانًا مَهينًا، أو مكّارًا غدِرًا، أو متكبّرًا جبّارًا، أو حريصًا شرهًا، أو كان محبًّا للمدح والثناء أكثر مما يستحقّ أو كان مُزريًا لنظرائه أو كان مُستحقرًا لأقرانه والناس ذامًّا لهم أو متّكلًا على حوله وقوّته؛ فاعلم أنّه لا يصلُح للصداقة وصفوة الأخوّة؛ لأنّ هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده لإخوانه»[55]، ويشير الإخوان بهذا إلى تأثير هذه الأخلاق والآراء والعادات على الروابط الاجتماعيّة؛ لأنّها قد تكون مُفسدة لها، ومن ثمّة لُزوم التحلّي بمحامد الأخلاق ونفهم من ذلك أهمية الاهتمام بالأخلاق والسمات الشخصية عند اختيار الأصدقاء أو الإخوان.

د- استثناء من لا يثبُت على طبع واحد:

استثنى إخوان الصّفاء في بيان مُتصوّر الصّداقة كثير التلوّن، ومن لا يثبُت على طبع واحد، وهو ذلك الذي يتبدّل سلوكه ويتغيّر خلقه وبتقلّب حاله من الفقر إلى الغنى أو من الصحّة إلى المرض مثلًا[56]، وفي السّياق ذاته يقرّ إخوان الصّفاء أنّ تقلّب الطبع بتغير الحال يصيب جميع البشر فيما عدا إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء؛ وهذا لأنّ كلّ صداقة تزول عند زوال ما دعا إليها من منفعة، أما

(54) المصدر السابق، (ص/140).
(55) المصدر السابق، (ص/140).
(56) المصدر السابق، (ص/142).

صداقتهم فإنها قرابة رحم/ وبها يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضًا، وذلك يعود إلى أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة وإذا أحسن واحد منهم إلى أخيه فإنه لا يمنّ عليه بإحسانه؛ لأنه يعتقد أنه بذلك يُحسن إلى نفسه، وإن أساء إليه أخوه لا يغضب منه؛ لأنه يرى أن ذلك منه لنفسه[57].

هـ - تنافي الأضداد وامتناع تشاكلها:

ذكّر إخوان الصّفاء أتباعهم بأنّه يتعذّر الجمع بين مساوئ الأخلاق ومحامدها بسبب أنّ الضدّين يتعارضان أو يتنافيان ولا يمكن أن يجتمعا، ويضرب إخوان الصّفاء على ذلك مثال السخيّ والبخيل، «واعلم أنَّ الصداقة لا تتمّ بين مختلفين بالطبع؛ لأنّ الضدّين لا يجتمعان، مثال ذلك السخيّ والبخيل فإنّهما متضادّان في الطبع فلا تتمّ بينهما الصداقة ولا تصفو لهما المودّة ولا يهنّيهما العيش؛ لأنّه إذا فعل السخيّ شيئًا مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف رآه البخيل بصورة المضيّع قد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز، وإذا فعل البخيل بطبعه شيئًا من إمساك المال ممّا يوجبه بخله رآه السخيّ بصورة من قد أتى منكرًا لا يحسُن فعله، فيصير ذلك سببًا لعيب كل واحد منهما على صاحبه حتى يعتقد البخيل في السخيّ سُخف الرأي، وتضييع المال، وترك النظر في العواقب، ويعتقد السخيّ في البخيل النذالة، والدناءة، وصغر النفس، وقصور الهمّة؛ فإذا وقع بينهما ودام صارت وحشة وتواترت حتى تصير عداوة وتصير العداوة إلى صرامة»[58]، ومنه إبراز فكرة أنّ الصداقة تتأسّس على قيم مشتركة وتوافقٍ في الطبع ضرورةً لاستحالة قيامها على اختلاف القيم وتباين السّجايا.

و- اتخاذ الصديق الموافق كمثل اكتساب المال أو هو أجلّ:

قارَن إخوان الصّفاء بين اختيار الأصدقاء والإخوة وبين اكتساب المال والثروات مُشيرين إلى كيفية التعامل معهم وتأثير ذلك في الروابط الاجتماعيّة فقالوا: «واعلم أنّ مثَل اتّخاذ الأصدقاء والإخوان كمثَل اكتساب المال والذخائر؛ وذلك أنّ من الناس مَن يُفني عمره في طلب صديق موافق فلا يجد فمثله كمثل الذي يفني عمره في طلب جمع المال فلا يقدر عليه، ومنهم من يكون مرزوقًا من كثرة المال، ومنهم من يُحسن أن يكسب المال، ولكن لا يُحسن أن يحفظه، فهكذا حكم اتّخاذ الإخوان والأصدقاء، ومنهم من لا يُحسن حفظهم ومراعاة أمورهم فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة، وإلى المُباغضة بعد المودّة»[59]، وفيه حديث عن تنوع الأصدقاء والإخوان حيث يوجد أولئك الذين يبذلون جهودًا كبيرة

(57) المصدر السابق، (ص/142).
(58) المصدر السابق، (ص/141).
(59) المصدر السابق، (ص/141).

للعثور على صديق يتوافق معهم بشكلٍ كاملٍ، لكن ينتهي بهم الأمر إلى عدم العثور على هذا الصديق المثالي، مثلما يفشل بعض الناس في بناء ثروات مادية وبالضدّ من ذلك هناك من يكونون محظوظين في اكتساب الأصدقاء بسببٍ من خصوصياتهم اللازمة بالطّبع والحادثة بالاكتساب.

2-2-2 شروط ما بعد الانتماء أو الصداقة داخل الجماعة

وهي شروط ستّة نتولّى النّظر فيها ما يلي:

أ. الاجتماع حول الدين لإدامة المودّة في الصداقة:

دعا إخوان الصّفاء إلى التأمل في قيم الإسلام وفضائله عاملًا موحّدًا يجمع الأصدقاء ويعزّز العلاقات بين الإخوة ويدُيم المودّة في قولهم «قد جمع الله بيننا وبينك –أيها الأخ البار الرحيم- في أسباب شتّى وخصال عدة ممّا يؤكّد المودّة بين الإخوان ويجمع شمل الأصدقاء في جميع صلاح الدين والدنيا [...] فمن إحدى تلك الخصال والأسباب التي تؤكد المودّة بين الأصدقاء ملّة الإسلام التي هي آكد الأسباب؛ لأنّه خير دين دان به المتألّهون، وأفضل طريق يسلكه إلى الله القاصدون»[60]، ومن هذا الإشارة إلى أنّ الله قد جمع بين إخوان الصّفاء في أسباب وخصال كثيرة تعزّز المودة بينهم وتجمعهم في كل صلاح ديني أو فلاح دنيوي ومنها الإسلام واحدًا من العوامل الرئيسة التي تثبّت هذه المودة لما فيه من خير وفضيلة.

ب. إيثار الغير على الذات أو التضحية بالنفس من أجل الجماعة:

ينبغي على من انتمى إلى جماعة إخوان الصّفاء واتخذهم خلّانًا أن يضحّي بنفسه من أجل الجماعة ويُقدّم الغير على النّفس؛ إذ يعلنون في رسائلهم أنّ «دولة أهل الخير يبدأ أوّلها من قوم علماء حكماء وخيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقًا أنْ لا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة لا يبتغون سوى وجه الله ورضوانه جزاءً ولا شكورًا»[61]، وفيه وصف دولة أهل الخير التي تتأسّس على قيم وأخلاق عالية حيث يجتمع فيها العلماء والحكماء والأخيار والفضلاء على توحيد الرأي والمذهب والدين مع وضع عهد أو ميثاق بينهم بترك التجادل والتقاعد عن نصرة بعضهم بعضًا ومنه الدعوة إلى السعي للانضمام إلى هذه النخبة القائمة على الأخلاق الحميدة والسعي إلى النجاح بمفازتهم في ما يكنّونه من مقاصد.

(60) المصدر السابق، (ص-ص/253-254).
(61) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، (ج1، ص/159).

ج- بذل الوسع في الإبقاء على الأصدقاء ومراعاة أمورهم:

يوجّه إخوان الصّفاء أعضاء جماعتهم إلى لزوم التمسّك بمن اتخذوه صديقًا وأن لا يتهاونوا في أداء حقوقه لئلّا تنقلب الصداقة إلى ضدّها، ونجد ذلك في مواضع عدّة من الرسائل مثل قولهم: «فينبغي لك أن يكون أكثر كدّك وعنايتك -بعد اتّخاذ الصديق- حفظه ومراعاة أمره وأداء حقوقه حتى لا تصير الصداقة عداوةً بعد طول الصحبة بملالة أو ضجر أو شكوك أو ظنون أو شبهة تدخل في المودّة أو نميمة ووشاية من مخالف له يسعى بينكما للفساد»[62]، أو قولهم: «فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك، وَقِ عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرّك، وشاوره في أمرك، وداوِ برؤيته عينك، واجعل أُنسك إذا غاب عنك ذكره والفكر في أمره، وإن هفا هفوة فاغفرها له، وإن زلّ زلّة فصغّرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك، واذكر من سالف إحسانه عند إساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك؛ فإنّ ذلك أسلم لودّه وأدومُ لإخائه»[63]، وهم بذلك يدعون إلى التّضحية والتفاني في خدمة الصديق والإخوان بأن يكون الصديق جزءًا من حياتك في كلّ جوانبها وأنحائها مع أهمية الوفاء والإخلاص وضرورة الإغضاء عن الأخطاء إدامةً الصداقة.

د- التوارث على اعتقاد أنّ الأصدقاء نفس واحدة في أجساد متفرقة:

غالى إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء في تحديد كُنه الصداقة فجعلوا منها صلة رحم، واعتبروا أنفسهم نفسًا واحدةً في أجساد متفرّقة في قولهم: «كلّ صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع ذلك السّبب بطُلت تلك الصداقة إلّا صداقة إخوان الصفاء، فإنّ صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أنْ يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضًا؛ وذلك أنّهم يرون ويعتقدون أنّهم نفس واحدة في أجساد متفرّقة فكيف ما تغيّرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغيّر ولا تتبدّل»[64]، ونفهم منه كوْن الصداقة في تعبير إخوان الصّفاء هي بوجه ما رمز للتضامن العميق الذي يتجاوز الظاهر من الظروف ويتعدّاها إلى تعاون أشبه بتفاعل أعضاء الجسم الواحد، أو بعبارة أخرى إنّ صداقة إخوان الصّفاء تنبني على روابط قلبية عميقة تقوم على التضامن والإخلاص بما يُظهر الإيمان بأنّ النفوس المتصلة ببعضها البعض عبْر رابطة الصداقة تبقى ثابتة ومستمرة عبر الزمن.

(62) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، (ج4، ص-ص/141-142).
(63) المصدر السابق، (ص/140).
(64) المصدر السابق، (ص/142).

هـ - التعاضد والتعاون:

يعتمد إخوان الصّفاء ممارسةً تقوم على التعاضد والتعاون في ما بينهم؛ إذ «إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعًا [...] وإذا وجدّت منهم واحدًا فتمسّك به فإنّه قرّة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة؛ لأنّ إخوان الصّدق نصرة على دفع الأعداء وزين عند الأخلّاء وأركانٌ يُعتمد عليهم عند الشّدائد والبلوى وظهرٌ يُستند إليه عند المكاره في السّرّاء والضّرّاء، وكنز مذخور ليوم الحاجة وجناح خافض عند المهمات وسُلّم للصعود إلى المعالي، ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشّفاعات وحصن حصين يُلتجأ إليه يوم الروع والفزعات، فإنْ غِبت حفظوك، وإنْ تضعضعت عضدوك، وإنْ رأوا عدوًّا لك قمعوه [...] فإنْ ذكرت أعانك وإنْ نسيت ذكّرك، يأمرك بالبرّ ويُسابقك إليه، ويُرغّبك في الخير ويُبادرك إليه ويدلُّك عليه، ويبذل ماله ونفسه دونك»[65].

وفيما سبق وصف لعمق الصداقة الحقّة من منظور إخوان الصّفاء، وتعبير عن الخصائص الجوهرية لإخوان الصدق مع إظهار أنّ تلكم الصداقة ليست تبادلًا سطحيًّا للود والتعاون بقدْر ما هي شراكة عميقة تتجاوز اليومي وما يقتضيه من دعم عند مواجهة التحدّيات في الشدّة والرخاء لتستوي بذلك سببًا إلى التغلّب على الصّعاب وأمانًا من الخوف والفزع ما يجعل منها أساسًا للإسناد والتّقدير المتبادل في كلّ آن وحين.

و- بذل المال والعلم:

وفي تطبيقٍ عملي لشرط التعاضد والتعاون يدعوا إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء أعضاء جماعتهم إلى فعل الخير والبرّ عبر بذل المال والعلم بما يعكس مبادئ الإيثار والتضامن الاجتماعي بينهم فيصرّحون أنّه «ينبغي لإخواننا ممّن قد رُزق المال والعلم جميعًا أن يؤدّي شكر ما أنعم الله جلّ وعزّ به عليه بأن يضمّ إليه أخًا من إخوانه ممّن قد حُرمَهما جميعا ويُواسيه من فضل ما أتاه الله تعالى من المال، ليُقيم به حياة جسده في دار الدنيا ويرقده ويعلّمه من علمه لتحي به نفسه للبقاء في دار الآخرة فإنّ ذلك من أقرب القُربات إلى الله وأبلغ لطلب مرضاته»[66] ويشير إخوان الصّفاء بهذا إلى واجب الشكر لله بمشاركة النعم من المال والعلم مع الآخرين من المنتسبين إلى الجماعة لضمان الرّفاه وتكريس العدالة الاجتماعيّة داخل الجماعة مع أهمّية نشر العلم والمعرفة قُربى إلى الله.

(65) المصدر السابق، (ص-ص/139-140).
(66) المصدر السابق، (ص-ص/145-146).

3. سياسة الأصدقاء: نحو تدبير أخلاقي للروابط الاجتماعيّة

يذهب إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء إلى أنّ في الصداقة بقاء النّسل والعالم ذلك أنّ «الصداقة أسّ الأخوّة والأخوّة أسّ المحبّة والمحبّة أسّ إصلاح الأمور وإصلاح الأمور صلاح البلاد وصلاح البلاد بقاء العالَم وبقاء النّسل»[67]، ولنا أن نقول إنّه ببقاء العالَم والحفاظ على النّسل تُبنى الصداقة بين الناس من جديد في مُتوالية تنطلق عند إخوان الصّفاء من الصداقة وإليها تعود كما يوضّح الشكل المُصاحب.

الشكل رقم 02: مُتوالية الصّداقة في منظور إخوان الصّفاء

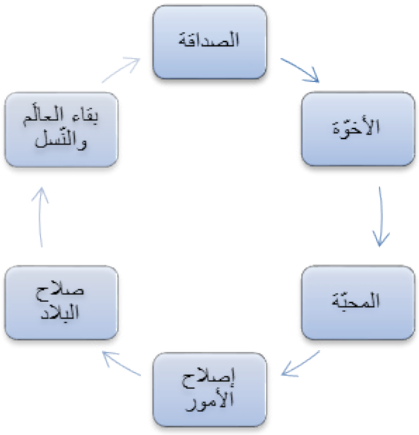

المصدر: من إعداد الباحث

وهم في ذلك يُبرزون سلسلةً من الروابط الاجتماعيّة والقيم التي تترابط مع بعضها البعض أساسها الصداقة جاعلين منها سببًا في بقاء العالَم والنسل إذ الصداقة في تصوّرهم هي الأساس الذي تقوم عليه روابط الأخوّة بين الأفراد التي تتّسم بالمحبة الصادقة والتعاطف المتبادل، كما اعتبروا المحبّة سبيلًا إلى حلّ النزاعات ومُجاوزة الصدامات بين بني البشر بما يُسهم في عمران البلاد واستمرار الحضارة وبقاء الإنسان.

وإجابةً عن سؤال سياسة الأصدقاء كيف تكون حدّد إخوان الصّفاء جملة من المحدّدات:

أ. المعرفة المكثّفة بالأصدقاء:

ويعني ذلك الاطلاع على تفاصيل حياة الواحد منهم وجزئيّات معيشه اليوميّ وعبّروا عن هذا بالقول إنّ «سياسة الأصحاب لا تكون إلّا بعد المعرفة بهم والاطّلاع عليهم ومعرفة أحوالهم ألّا يخفى عليك من أمرهم صغيرةً ولا كبيرةً، لتسوس كلّ واحد منهم السياسة التي تليق به دنيا ودينًا، ومتى كنت جاهلًا بمعرفتهم

(67) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، (ج2، ص/232).

لم تتمّ لك سياستهم، ولم تبلغ رضاءهم، ولم يكونوا لك أصحابًا»[68] بما يُبرز أهمية المعرفة والاطّلاع على الإخوان جيّدًا قبل اتّخاذ أي قرارات أو تبنّي أيّ سياسات بشأنهم، وهو ما يعكس مفهومًا أساسيًا في السياسة والإدارة الفعّالة بلغة عصرنا كما يُحيل محدّد المعرفة اللصيقة بالأصدقاء داخل جماعة إخوان الصّفاء إلى الحكمة والتفهّم العميق مع التركيز على أهمية العدل والاحترام الشخصي في الروابط الاجتماعية.

ب. التروّي والتفكير العقلاني في صلات الصداقة:

يُحيل هذا على الحذر في التعامل مع الأصدقاء والحفاظ على مسافة ضرورية من البُعد عنهم أو المراوحة بين القرب والبعد نستشفّ ذلك من نصّ إخوان الصّفاء «احرص أن تُباعد بين معرفتهم [الأصحاب] بك وبينهم لئلا يطّلعوا عليك كما اطّلعت عليهم فيأتوك من حيث أمنت لأنّه ليس كلّ من صاحبك يحقّ لك أن تثق به ولا تطمئنّ إليه»[69] وفيه ضرورة الحذر والتروّي في التعامل مع جملة الإخوان والخلّان والتّنبيه إلى أنّه ليس كل من يُعتبر صديقًا يستأهل ثقة تامّة.

ج- تفضيل الصديق على من سواه:

يُشدّد إخوان الصّفاء على أنّه ينبغي للواحد منهم أن يفضّل صداقة من يشترك معه في الرأي والمنزع العقلي والاتجاه الفكري والسلوك لأنّ الصداقة عندهم تنبع من الجوهر الإنساني المتسامي ولا تخرج من الذوات الفانية ويُعبّرون عن هذا بقولهم «ينبغي لك إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم فإنّه خير لك من ولدك الذي من ظهرك وأخيك من صُلب أبيك ومن زوجتك التي جعلتَ كلّ كسبك لها وجميع سعيك من أجلها، فاعرف حقّه كما تعرف حقوقهم بل ينبغي أن تؤثره عليهم كلهم؛ لأنّ هؤلاء يحبّونك من أجل منفعة تصل منك إليهم ويريدونك من أجل مضرّة تدفعها عنهم فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا في غيرك وخذلوك أحوج ما تكون إليهم، فأمّا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج عن ذلك بل من أجل أنّه يرى ويعتقد أنك إيّاه وهو نفس واحدة في جسدين متقابلين، يسرّه ما يسرّك ويغمّه ما يغمّك، يريد لك منه مثل الذي تريد له منك»[70].

يضع إخوان الصّفاء من خلال هذا المقتطف الصاحب في مكانة مقابل الأقارب والعشيرة والزوجة؛ لأنّ الواحد من إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء لا يبغي مقابلًا عمّا يبذله أمّا ما دونه فيقوم تفاعلهم

(68) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، (ج4، ص/302).
(69) المصدر السابق، (ص/303)
(70) المصدر السابق، (ص-ص/142-143).

والرابطة الإنسانيّة التي تشدّ إليهم على المنفعة والحاجة، فإذا انقضت الحاجة فتُرت الرابطة واهتزّت أو تلاشت بما يُشدّد على أهمّية اختيار الأصدقاء والممايزة بين من يسعى إلى راحة خليله وسعادته دون قيْد ومن هو دون ذلك.

د- التوازن في الصلات الاجتماعية والأسريّة:

يأتي هذا في محاولة لضبط مفهوم مخصوص لحُسن تدبير هذه الصلات مثل سياسات «القرب بالبعد» و«اللين بالغلظة» و«الأُنس بالوحشة» و«الانبساط بالانقباض»...إلخ في إشارة إلى أنّه ينبغي إظهار القرب والتواصل مع الأصدقاء دون تجاوز الحدّ الشخصي، ويقول إخوان الصّفاء في هذا: «يجب أن تُظهر لهم [الأصدقاء] القرب بالبعد واللين بالغلظة والأُنس بالوحشة والكرم بالشحّ والانبساط بالانقباض والرحمة بالسخط والوعد على الجميل والوعيد على الذنب [...] ولا يكون اعتقاد أهلك وذريتك وأزواجك وبنيك مخالفًا لما يظهر من اعتقادك لأصحابك وإخوانك، فمتى لم يكن كذلك فلا أهل لك ولا أصحاب ولا دين ولا دنيا ولا علم ولا عمل»[71]، ويلفت إخوان الصّفاء بذلك إلى حاجة الفرد إلى العزلة رغم اجتماعيّته المُفرطة، كما يفترض التنظيم ذاته مع الإشادة بالاستقامة الاعتقاديّة دون تضارب بين ما يظهَرُ من اعتقاد للأصدقاء والخلّان وما يُعبَّر عنه للعائلة وذوي القربى.

هـ -الالتزام بالعقلانية وطرد المخالف من الجماعة:

وفي هذا المحدّد نقض الصداقة ونقضها عقوبةً لمن دخل في الجماعة ولم يلتزم بنظامها الداخلي وقانونها الأساسي إذا ما رُمنا توظيف لغتنا المعاصرة في مقاربة نصوص تراثية عتيقة ومدار إدامة العضوية هو الاستناد إلى مبادئ العقل والقبول والرضا بمن أُخْتِيرَ ليكون رئيسًا بناءً على مبادئ العقل والحكمة التي يُفترض أنها توجّه قرار الاختيار ونصّ إخوان الصّفاء على ذلك بقولهم: «ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحَكَم بيننا العقل الذي جعله الله تعالى رئيسًا على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر، والنهي ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التي ذكرناها في رسائلنا وأوصينا بها إخواننا، فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات قضاياه، ولم يقبل تلك الشرائط التي أوصينا بها إخواننا أو خرج عنها بعد الدخول فيها فعقوبته في ذلك أن **نخرُج من صداقته** [...] **ولا نُعاشره في معاملتنا** [...] **ونُوصي بمجانبته إخو اننا**[72]، ما يبيّن التزام الجماعة بالمبادئ العقلانية والشروط التي حدّدتها للرئيس وعن عقاب من لا يلتزم بهذا الشّرط وهو النّفي من دائرة الأصدقاء ومقاطعته.

(71) المصدر السابق، (ص/303).

(72) المصدر السابق، (ص/202) والتّشديد من عندنا.

نتائج البحث:

أفضى بحثنا إلى جملة من النتائج أبانت عن عمق التصوّر الأخلاقي والاجتماعي الذي حمله إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء في مدوّنة الرسائل ومدى اتّساق ذلك المُتصوّر مع مشروعهم الفكري العام الذي سعى إلى إصلاح الفرد وبناء مجتمع متماسك أخلاقيًّا وفكريًّا من داخل رؤية شمولية تتجاوز الانتماء العقدي والتمذهب.

ولقد تبيّن من خلال التحليل أنّ إخوان الصفاء جعلوا من الصداقة عمادًا بنيويًّا لتنظيم اجتماعهم الإنساني، باعتبارها صلة وجدانية ورابطة اجتماعية ونظامًا أخلاقيًا ومعرفيًا دقيقًا يتأسّس على شروط انتقائية صارمة تُعلي من قيم تربوية مثل الزهد والصدق والإيثار والتعاضد وتتوسّل بذلك إلى تأسيس نموذج جماعي مغلق يزاوج بين النخبوية والسرّية.

لا تنفصل الصداقة عند إخوان الصفاء عن فلسفتهم في إصلاح النفس والمجتمع، وقد وُظِّفت في رسائلهم بوصفها وسيلةً إلى تكوين الفرد الصالح وبناء المدينة الروحية الفاضلة وضمان الانسجام بين أفرادها بما يكشف عن مركزية الأخلاق في تصورهم للروابط الاجتماعيّة حيث تمثّل الصداقة صورة من صور التزكية الاجتماعية التي قد لا تقلّ أهمية عن التزكية الفردية تتكامل معها وتُنتج أثرًا جماعيًّا يُجاوز حدود الفرد.

تكمن جدّة ما اشتغلنا عليه في إعادة طرح سؤال الصداقة في رسائل إخوان الصفاء خارج أطر التصنيف العقدي والمذهبي الذي طالما شغل الباحثين بما فتَح على تفكيك آليات تصوّر الرابطة الاجتماعية بوصفها بنية فكرية وتنظيمية تُترجم فلسفة الجماعة في تدبير شؤون الانتماء والترقّي الأخلاقي ويدفع هذا إلى الاستثمار البحثي المستقبلي في إمكان مقارنة مُتصوّر إخوان الصّفاء للصداقة بمُتصوّرات مماثلة في الفلسفة اليونانية كأفلاطون وأرسطو مثلًا أو مُتصوّرات التصوف الإسلامي ماضيًا أو الدراسات السوسيولوجية المعاصرة راهنًا أو حاضرًا.

ولعلّ بعض هذه النتائج يمكّن من طرح إشكالات إضافية تتّصل بحدود العلاقة بين الأخلاق والسياسة عند إخوان الصّفاء وموقع المرأة في الاجتماع الإنساني الذي اقترحوه، ودوْر الصداقة في الأزمنة الحديثة السائلة على حدّ عبارة زيغموند باومان، ومن ثمّة فإنّ بحثنا يفتح على إمكان إعادة التفكير في الرابطة الاجتماعية من صُلب التراث الإسلامي بوصفه مشروعًا حيويًّا يمكن أن يُضيء أسئلة الإنسان العربي المعاصر حول الصلة بالآخر والوفاء والانتماء والمجتمع في كلّيته.

المراجع

إخوان الصفا. (2018). *رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء* (مراجعة خير الدين الزركلي). مؤسسة هنداوي.

أمين، أ. (2013). *ظهر الإسلام*. مؤسسة هنداوي.

التوحيدي، أ. ح. (2019). *الإمتاع والمؤانسة* (تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين). مؤسسة هنداوي.

الخطيب، م. أ. (1986). *الحركات الباطنية في العالم الإسلامي: عقائدها وحكم الإسلام فيها* (ط. 2). مكتبة الأقصى.

زيدان، ج. (2013). *تاريخ آداب اللغة العربية*. مؤسسة هنداوي.

الشهرستاني، أ. ف. (1968). *الملل والنحل* (تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل). مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع.

عيد، ث. (2008). الصداقة عند إخوان الصفا. *مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة*، 114، 19–36.

قاسم، ص. (2007). حول ظاهرة إخوان الصفا: الفكر والعصر والمجتمع. *مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي: مصادر وتراجم، جامعة وهران*، 6، 210–223.

القفطي، ج. الدّ. (2005). *إخبار العلماء بأخبار الحكماء* (تحقيق إبراهيم شمس الدين). دار الكتب العلمية.

قمير، ي. (1968). *إخوان الصفا* (ط. 3). دار المشرق.

قوميد، ف.، & الأعرجي، م. ص. (2022). إخوان الصفا وخلّان الوفا: دراسة في اتجاههم الفكري. *المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس*، 14(2)، 572–592.

كوربان، هـ. (1998). *تاريخ الفلسفة الإسلامية* (ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي) (ط. 2). منشورات عويدات.

مبارك، ز. (2013). *النثر الفنّي في القرن الرابع*. مؤسسة هنداوي.

References

Ikhwan al-Safa. (2018). *Rasa'il Ikhwan al-Safa' wa Khullan al-Wafa'* [Epistles of the Brethren of Purity and the Loyal Friends] (Khayr al-Din al-Zarkali, Ed.). Hindawi Foundation.

Amin, A. (2013). *Zuhur al-Islam* [The Rise of Islam]. Hindawi Foundation.

Al-Tawhidi, A. H. (2019). *Al-Imta' wa al-Mu'anasa* [The Enjoyment and Conviviality] (A.

Amin & A. al-Zayn, Eds.). Hindawi Foundation.

Al-Khatib, M. A. (1986). *Al-Harakat al-Batiniyya fi al-'Alam al-Islami: 'Aqa'idha wa Hukm al-Islam fiha* [Esoteric Movements in the Islamic World: Their Doctrines and the Islamic Ruling on Them] (2nd ed.). Maktabat al-Aqsa.

Zaydan, J. (2013). *Tarikh Adab al-Lugha al-'Arabiyya* [History of Arabic Literature]. Hindawi Foundation.

Al-Shahrastani, A. F. (1968). *Al-Milal wa al-Nihal* [Religions and Sects] (A. M. al-Wakil, Ed.). Al-Halabi & Co. for Publishing and Distribution.

'Id, T. (2008). Al-sadaqa 'inda Ikhwan al-Safa [Friendship among the Brethren of Purity]. *Journal of the Arabic Language Academy in Cairo*, 114, 19–36.

Qasim, S. (2007). Hawl zahirat Ikhwan al-Safa: al-fikr wa al-'asr wa al-mujtama' [On the Phenomenon of the Brethren of Purity: Thought, Age, and Society]. *'Usur: Journal of Historical Research Laboratory – Sources and Biographies, University of Oran*, 6, 210–223.

Al-Qifti, J. al-D. (2005). *Ikhbar al-'Ulama' bi-Akhbar al-Hukama'* [Informing the learned Men Concerning the Reports of the Wise Men] (I. Shams al-Din, Ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyya.

Qumayr, Y. (1968). *Ikhwan al-Safa* (3rd ed.). Dar al-Mashriq.

Qumid, F., & al-'Araji, M. S. (2022). Ikhwan al-Safa wa Khullan al-Wafa: Dirasah fi Ittijahihim al-Fikri [The Brethren of Purity and the Loyal Friends: A Study of Their Intellectual Orientation]. *Maghribi Journal of Historical and Social Studies, University of Sidi Bel Abbes*, 14(2), 572–592.

Corbin, H. (1998). *Tarikh al-Falsafa al-Islamiyya* [History of Islamic Philosophy] (N. Marwah & H. Qubaysi, Trans.; 2nd ed.). 'Uwaydat Publications.

Mubarak, Z. (2013). *Al-Nathr al-Fanni fi al-Qarn al-Rabi'* [Artistic Prose in the Fourth Century]. Hindawi Foundation.